توظيف الضمائر

في تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده

إعداد

أحمد محمد حبشي أحمد

باحث مصري

الملخص:

يهدف البحث إلى بيان بعض ملامح الفكر البلاغي في توظيف الأستاذ الإمام (محمد عبده) للضمائر في تفسير القرآن الكريم ، أشار الباحث إلى معنى الضمير وأهميته في تفسير القرآن الكريم ، فالضمير من أهم دعائم الأسلوب القرآني وأحد أسباب إعجازه ، كما أن مرجع الضمير وتعدده من أهم مقاصد البلاغة القرآنية التي تقوم على الإيجاز من جهة وإعمال العقل من جهة أخرى ؛ فهو الأصل في الربط وتحقيق التماسك النصي . وقد ساق الباحث بعض الأمثلة التطبيقية التي ظهر من خلالها مدى اعتناء الأستاذ الإمام بالضمائر بأنواعها في تفسيره فقد كان يرى أن التفنن في ارجاع الضمائر يقرر المعنى في الذهن ويؤكده . أضف إلى ذلك أن التنوع في الأسلوب أفضل من إجرائه على نمطٍ واحد؛ لما يحدثه من تطرية ونشاط لذهن المتلقي . فقد أشار مفسرنا إلى عودة الضمير ودلالاته ، والالتفات الذي أطلقوا عليه الاستثناء البلاغي وشجاعة العربية ، وليس هذا فحسب بل أشار إلى بعض الدلالات البلاغية من وراء وضع الاسم الظاهر موضع الضمير. وقد استخدم الباحث المنهج الاستقرائي والمقارن لبيان الرأي الراجح عند الأستاذ الإمام .

Abstract:

The research aims to explain some features of rhetorical thought in Professor Imam (Muhammad Abduh)'s use of pronouns in interpreting the Holy Qur'an. The researcher pointed out the meaning of the pronoun and its importance in interpreting the Holy Qur'an. The pronoun is one of the most important pillars of the Qur'anic style and one of the reasons for its miracle, and the reference of the pronoun and its multiplicity is one of the most important. The objectives of Quranic eloquence, which are based on brevity on the one hand and the application of reason on the other hand; It is the basis for linking and achieving textual cohesion. The researcher gave some practical examples through which the extent to which Professor Imam paid attention to all types of pronouns in his interpretation was evident. He believed

that the artistry in referring pronouns determines the meaning in the mind and confirms it. In addition, diversity in style is better than performing it in one style. Because of the cheerfulness and activity it brings to the mind of the recipient. Our interpreter pointed out the return of the pronoun and its connotations, and the turning point that they called the rhetorical exception and the courage of Arabic. Not only that, but he also pointed out some of the rhetorical connotations behind placing the apparent noun in the place of the pronoun. The researcher used the inductive and comparative method to explain the most correct opinion of Professor Al-Imam.

المقدمة:

الضمير في اللغة من (ضمر) ، قال ابن فارس : الضاد والميم والراء أصلان صحيحان أحدهما يدل على دقة في الشيء والآخر يدل على غيبة وتستر.." ([1]) وقال الراغب: الضمير ما ينطوي عليه القلب ويدق على الوقوف عليه ، وقد تسمى القوة الحافظة لذلك ضميرًا ." ([2]) وقال ابن هشام : إنما سمي مضمرًا من قولهم : أضمرت الشيء ، إذا سترته وأخفيته.."([3])

والضمير في الاصطلاح : ما وضع لمتكلم أو مخاطب أو غائب تقدم ذكره ، معنى ، أو لفظًا ، أو حكمًا ."([4])

وقد عده النحاة أعرف المعارف بعد لفظ الجلالة –عزوجل – وضميره ، فأشاروا إلى أقسامه وأهميته في لغة القرآن من حيث الاختصار والإيجاز، يقول ابن يعيش : "

([1]) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1366هـ ، ج3، ص317 ، مادة (ضمر)

([2]) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق : مركز الدراسات والبحوث ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مادة (ضمر) ، ص390

([3]) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام النحوي ، تحقيق : محمد أبو الفضل عاشور، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1422هـ- 2001 م ، ص75

([4]) الأمالي النحوية لابن الحاجب : ج2، 521

و إنما أتي بالمضمرات؛ لضرب من الإيجاز واحترازًا من الإلباس "([1]).

إنَّ توظيف الضمائر في القرآن الكريم من أهم الدعائم التي اعتمد عليها في بناء أسلوبه من جهة ، وتحدي أرباب الفصاحة والبيان من جهةٍ أخرى ؛ كما أن المفسر لا يتثنى له فهم القرآن وتأويل معانيه إلا إذا كان على علمٍ بمرد الضمير ومرجعه في القرآن الكريم ؛ فاختلاف مرجع الضمير وتعدده من أهم مقاصد بلاغة القرآن وإعجازه وتعدد معانيه ، فالقرآن معجز بلفظه كما هو معجز بمعناه . ولله در الزمخشري عندما جعل الالتفات في الضمائر من عادات العرب و افتنانهم في الكلام ؛ "لأنَّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطريةً لنشاط السامع ، و إيقاظًا للإصغاء إليه من إجر ائه على أسلوب واحد ، وقد تختص مو اقعه بفو ائد "([2]).

وجدير بالذكر أن الضمائر هي الأصل في الربط بين الأسماء ، كما أنها :"تمتلك خاصية الإحالة([3]) ؛ وهي عناصر تحفز المتلقي على البحث في مكان آخر عن معناها ، ومتى كان الشيء المحال إليه داخل النص فإن تلك الأدوات تلعب دورًا أساسيًا في تحقيق التماسك النصي"([4]).

والأستاذ الإمام كان يشير كثيرًا إلى مرجع الضمير، وتعدده ، ويرجح ما يراه بالدليل، كما يشير إلى الالتفات في الخطاب والغرض من إيثار القرآن الكريم لضمير على آخر وأحيانًا يشير إلى وضع الاسم الظاهر موضع المضمر والعكس ، وهو في ذلك كله قد يو افق المفسرين في الرأي ، وقد يخالفهم مبينًا العلة والسبب ، فقد كان منهجه ينص على أن :" التفنن في إرجاع الضمائر متفرعة ضرب من استعمال البلغاء ، يقرر المعنى في الذهن ويهبه فضل تمكن وتأكيد ، بما يحدث فيه من الروية والتوجه إلى الإحاطة

([1]) شرح المفصل لابن يعيش ، تحقيق : د: إميل يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1422هـ-2001م ، ج3، ص84

([2]) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ، تحقيق : عبد الرازق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج1، ص29

([3]) علاقة معنوية بين ألفاظ أو أسماء معينة وما تشير إليه من مسميات أو أشياء داخل النص أو خارجه يدل عليها السياق أو المقام ، عن طريق ألفاظ أو أدوات محددة كالضمير واسم الإشارة واسم الموصول .وتشير إلى مو اقف سابقة أو لاحقة في النص .

([4]) الإحالة بالضمائر ودورها في في تحقيق التر ابط في النص القر آني (دراسة وصفية تحليلية): نائل محمد إسماعيل : مجلة جامعة الأزهر بغزة ، سلسلة العلوم الإنسانية ، 2011، المجلد 13، العدد 1 ، ص1067

بمعاني المختلفات "([1]) ومن شواهد ذلك من تفسيره:

●الإشارة إلى عودة الضَّمير:

لا بد للضمير من مرجع يعود إليه ويكون ملفوظًا به سابقًا مطابقًا به ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ هود: ٤٢ ، .. فضمير الغائب في ابنه يعود على مرجع سابق له ومتعلق به ويطابقه وهو نوح –عليه السلام - .أو متضمنًا له ، نحو قوله تعالى :" ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: ٨، فالضمير عائد على العدل المتضمن له اعدلوا ..أو متأخرًا لفظًا لا رتبة مطابقًا ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ طه: ٦٧ فالضمير في نفسه يعود على مرجع متأخر لفظًا لا رتبة هو العنصر الإشاري (موسى).. وقد يدل عليه السياق فيضمر ثقة بفهم السامع ، نحو قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾الرحمن: ٢٦ ."[2]كما أن إعادة الضمير إلى مرجعه من أهم المهام التي يقوم بها مفسر النص ؛ لأنها تزيل عنه اللبس ، وتوضح دلالاته ، ولا شك أن اللبس يحول دون تماسك النص ، كما أن إزالة اللبس عن النص تقوي تماسكه ، وتبين الترابط بين أجزائه ".([3])

وقد فطن مفسرنا إلى ذلك فأشار إلى عودة الضمير ودلالاته ، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾البقرة: ٢٣ ، فالضمير في قوله (من مثله) –عنده- فيه وجهان:

أحدهما : أن الضمير في (مثله) للقرآن المعبر عنه بقوله :(مما نزلنا)، والثاني : أنه (لعبدنا) ، (وهو أرجح) بدليل (من)الداخلة على مثله الدالة على النشوء ، أي فإن كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الإتيان بسورة فليفعل "([4])، وهكذا يخالف الأستاذ الإمام جمهور المفسرين الذين جعلوا الضمير في (مثله) للقرآن الكريم لموافقته

([1]) تفسير المنار(تفسير القرآن الحكيم) لمحمد عبده ورشيد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب 1990 م : ج1، ص169

([2]) الإحالة بالضمائر ودورها في تحديد الترابط في النص القرآني ، ص1071-1072

([3]) الإحالة بالضمائر ودورها في تحديد الترابط في النص القرآني ، ص1069

([4]) المنار: ج1، ص192، والأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : تحقيق وتقديم : محمد عمارة ، دار الشروق ، ط1، 1414هـ-1993م ، ج4، ص99

سياق الآيات الأخرى في التحدي([1]) أما هو فجعله خاصًا بهذه الآية" ([2]).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ البقرة: ٢١٣، قال :" وعود الضمير على جميع النبيين ما يفيد أنَّ الله أنزل مع كل نبي كتابًا ، معجزًا كان أو غير معجز، طويلًا كان أم قصيرًا ، دُونَ وحفظ أم لم يدون ولم يحفظ ، ليؤدي من سلف إلى خلف.([3])"

وهكذا رأيناه يخالف الجمهور أحيانًا في الإشارة إلى بعض المعاني المستنبطة من الآيات الكريمة معتمدًا على سليقةٍ لغويةٍ وذوقٍ عالٍ مكناه من فهم أساليب اللغة العالية في القرآن الكريم ، ومن ثَمَّ مكناه من فهم الدور الذي تقوم به الضمائر –لا سيما الغائبة منها - في تماسك النص القرآني وتعدد معانيه .

- الإشارة إلى الالتفات في الضَّمائر:

والالتفات : هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أعني من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها .. بعد التعبير بالأول ."([4]) أو هو الاعتراض عند قوم ، وسماه آخرون الاستدراك ، وسبيله أن يكون الشاعر آخذًا في معنى ثم يَعْرِض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به ، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول ."([5]) وله فوائد منها : تطرية الكلام ، وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات ، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد .")[6]) ويسميه البلاغيون

([1]) نحو قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء: ٨٨

([2]) المنار: ج1 ، ص192

([3]) المنار: ج2، ص284 ، والأعمال الكاملة : ج4، ص529

([4]) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1394هـ- 1974م ، ج3، ص254 و انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط1، 1426هـ- 2006م ، ص72

([5]) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ،تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5، 1981م –ج2، ص45

([6]) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج3، ص254

(الاستثناء البلاغي) ، ويسميه النحاة (شجاعة العربية) وله صور في القرآن ، منها :

أ-الالتفات من التكلم إلى الخطاب:

وتكمن فائدته في حث السامع وبعثه على الاستماع عند إقبال المتكلم عليه ، و أنه أعطاه فضل عناية ، وتخصيص بالمواجهة"([1]) ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾يس: ٢٢ ، والأصل (وإليه أرجع) فالتفت من التكلم إلى الخطاب ، وفائدته أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه تلطفًا وإعلامًا أنه يريده لنفسه ، ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله "([2]).

وقد فطن الأستاذ الإمام إلى دور هذا الالتفات في خدمة المعنى وتزيين اللفظ فأشار إليه ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٩٧، فقد ورد على طريق الالتفات عن التكلم إلى الخطاب ، إذ كان مقتضى السياق أن يقول:(نزله على قلبي) وقد قالوا في نكتته أنها حكاية ما خاطبه الله تعالى به . ولا أرى صاحب الذوق السليم إلا مستنكرًا صيغة التكلم في هذا المقام ، والعلة في ذلك لا تبعد عن الأفهام ، ومنها أن الضمير المنصوب البارز في (نزّله) للقرآن وهو لم يذكر فيما قبلها و إنما عينته قرينة الحال ، وذلك يدل على فخامة شأنه ، كأنه لشهرته قد استغني عن ذكره "([3]).

وما ذكره الأستاذ الإمام هو الراجح لأنه قول أئمة المفسرين ويؤيده قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤

ب. الالتفات من الخطاب إلى التكلم:

وقد نفى صاحب الإتقان وقوعه في القرآن الكريم، وقد مثل له بعضهم بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾طه: ٧٢ ، ثم قال : ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾طه: ٧٣، وهذا المثال لا يصح ؛ لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحدًا "([4]). ويبدو أن الأستاذ الإمام قد خالف (صاحب

([1]) في ظلال القرآن لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط17، 1992م ، ج2، ص1133 ، و انظر: الإحالة بالضمائر ودورها في الربط ، ص1085

([2]) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج3، ص264

([3]) المنار: ج1، ص393 والأعمال : ج4 ، ص227

([4]) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج3، ص255

الإتقان) ؛ فأشار إليه ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾البقرة: ١٨٦ ، فقال فيها :"هذا التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام ، إلى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام .. وجعلت بأسلوب الفتوى على تقدير السؤال لتنبيه الأذهان ، والمراد أن يؤمنوا بأن الله تعالى قريب منهم ليس بينه وبينهم حجاب ولا ولي ولا شفيع يبلغه دعاءهم وعبادتهم ، أو يشاركهم في إجابتهم أو إثابتهم ، ليتوجهوا إليه وحده حنفاء مخلصين له الدين ."([1])

ج- <u>الالتفات عن الإفراد إلى الجمع</u>: وهو كثير شائع في لسان العرب ؛ أشار إلى ذلك الأستاذ الإمام ؛ حيث نزل القرآن على طريقة :(إياك أعني واسمعي يا جارة) ؛ فتوجيه الكلام إلى شخص يراد به غيره شائع في كلام العرب ، ومنه ، قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٠٧ ، بيَّن أن الخطاب من أول الآية للنبي – صلى الله عليه وسلم –بقوله : (ألم تعلم) والمراد به غيره من المؤمنين ...ومن آية إرادة الأمة بالخطاب الالتفات عن الإفراد إلى الجمع بقوله :(ومالكم) أي : إنَّ وليكم وناصركم هو الله وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به" ([2]) ولا يخفى ما في هذا الالتفات من تثبيت ودعم وطمأنينة للنبي- صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بعدم الركون إلى الشبه التي يثيرها اليهود في مسالة النسخ وغيرها .

د- <u>الالتفات عن الجمع إلى الإفراد:</u>

نحو قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ البقرة: ١٨٥ ، فقد ذكر الأستاذ الإمام الحكمة من إفراد الضمير في قوله (فليصمه) وجعلها مثل الحكمة التي لم يحدد القرآن مو اقيت الصلاة لأجلها فقال: "و إنما عبر بهذه العبارة ولم يقل : فصوموه .. فمنزل القرآن وهو علام الغيوب وخالق الأرض والأفلاك خاطب الناس كافة بما يمكن أن يمتثلوه ؛ فأطلق الأمر بالصلاة والرسول بين أوقاتها بما يناسب حال البلاد المعتدلة التي هي القسم الأعظم من

([1]) المنار: ج2، ص167 ، والأعمال الكاملة :ج4، ص452

([2]) المنار: ج1، ص415 ، والأعمال الكاملة : ج4، ص253

الأرض .. وكذلك الصيام ما أوجب رمضان إلا على من شهد الشهر وحضره ، والذين ليس لهم شهر يسهل عليهم أنْ يُقدِّروا له قدره ."([1]).

وهذا الشاهد فيه دلالات متعددة ؛ منها:

- رجاحة عقل الأستاذ الإمام ومدى فهمه لأساليب القرآن ؛ فقد عول على الالتفات في الضمائر ليبين أن بعض أحكام القرآن قد يأتي عامًا وبعضها الآخر قد يأتي خاصًا . فقد جاء تفسيره مستندًا إلى الدليل العلمي الذي يقطع بأن هذا القرآن من عند الله –عزوجل – وليس من كلام البشر، و أنه يجوز في أحكام القرآن القياس والاجتهاد

- الالتفات في الضمائر من أهم أسباب إعجاز القرآن الكريم ؛ حيث ظهر من خلالها الإعجاز العلمي في القرآن الكريم فقد جاء الخطاب في القرآن عامًا لا يتقيد بزمان الرسول وصحابته الكرام و إنما ناسب كل زمان ومكان ؛ يجد فيه أصحاب كل زمان ومكان بغيتهم ، وكأنه نزل فيهم وخصهم بالخطاب .

وقد يُفرد الضمير مراعاةً للفظه ويجمع مراعاة لمعناه ويشير إلى ذلك الأستاذ الإمام كما ورد في سياق رد المولى – سبحانه – على عقيدة أهل الكتاب الفاسدة وزعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، بقوله : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾البقرة: ١١٢"، فأفردَ الضمير في قوله :(فله أجره) مراعاة للفظ (مَن) ، وجمعهُ في قوله : (ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) مراعاة لمعناها " ([2]) ومعنى ذلك أن (من) اسم مبهم يقع معناها على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، تقول مثلا: جاءني من قام ومن قاما ومن قامتا ومن قاموا ومن قمن ، وأعجبني من جاءتاك ومن جاءاك ومن جاؤوك ومن جئنك"([3]) ف (من) كالذي عند النحاة ؛ بمعنى أنها جاءت مفردة في اللفظ ومعناها على الجمع ، فهي اسم للتعبير عن المفرد والجمع كما يراها النحاة والمفسرون ، يقول ابن عاشور: وجمع الضمير في قوله :(ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) اعتبارًا بعموم من ، كما أفرد الضمير في قوله (وجهه لله وهو محسن) اعتبارًا بإفراد اللفظ، وهذا من تفنن العربية لدفع

([1]) المنار: ج2، ص162-163

([2]) المنار: ج1، ص427، والأعمال ج4، 264

([3]) الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها لابن فارس ، تحقيق : مصطفى الشربيني ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 2003م، ص127

سآمة التكرار"([1]).

قال (ابن خالويه في كتاب (ليس في كلام العرب): القاعدة في (مَنْ) ونحوه الرجوع من اللفظ إلى المعنى ، ومن الواحد إلى الجمع ، ومن المذكر إلى المؤنث ، نحو قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾البقرة:112، أجمع على هذا النحويون "([2]).

و إفراد الضمير العائد على الاسم الموصول مراعاة للفظه وجمعه مراعاة لمعناه ورد كثيرًا في القرآن الكريم ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾البقرة: ١٧ ، فقد عاد الضمير في قوله (ذهب الله بنورهم) جمعًا على المفرد (الذي) .والأصل في الضمير أن يطابق العائد عليه ، ولكن النظم القرآني المعجز قد جاء على خلاف الظاهر؛ بمعنى أن الاسم الموصول جاء مفردًا في اللفظ ومعناه على الجمع ، فحمل أول الكلام في الآية على الواحد وحمل آخره على الجمع ، هذا وجه في الآية . ووجه آخر ذكره ابن عاشور مؤداه أن جمع الضمير في قوله (بنورهم) إنما كان مراعاة للحال المشبهة وهي حال المنافقين – لا للحال المشبه بها – وهي حال المستوقد للنار– على وجه بديع في الرجوع إلى الغرض الأصلي ، وهو انطماس نور الإيمان منهم ، فالضمير في الآية عائد إلى المنافقين ، لا إلى اسم الموصول الذي ."([3]).

وقد يفرق الأستاذ الإمام في تفسيره بين الضمائر ومرجعها ويضرب له الأمثلة من التنزيل، نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾البقرة: ٧٦، فالضمير في قالوا الأولى غير الضمير في قالوا الثانية ولا لبس فيه ولا اشتباه؛ .. فالكلام في مجموع اليهود ، ويوجّه الأول إلى الذين يلاقون المؤمنين ، والثاني إلى الذين يلاقيهم هؤلاء من قومهم . ومثله مستفيض في كلام البلغاء وفي التنزيل أيضًا، نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٣٢ ، فإنَّ المنهي عن العضل الأولياء لا المُطلّقون.

([1]) التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ، 1984م ، ج2، 675.

([2]) ليس في كلام العرب لابن خالويه ، ص219 والإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ج3، ص1279

([3]) التحرير والتنوير لابن عاشور: مج1، ج1، ص309

والكلام في القرآن للمكلفين كافة فيوجه كل كلام إلى صاحبه الذي يتعين أن يكون له بقرينة الحال أو المقال ، فإذا وجه الخطاب بالطلاق إلى الأزواج لأنه لا يكون إلا منهم ، فكذلك يوجه الخطاب بالنهي عن العضل- وهو منع المرأة من التزوج - إلى الأولياء ؛ لأنه لا يكون إلا منهم ."([1]).

وأحيانًا يشير إلى بعض النكات أوينبه على بعض الأمور عند إيثار القرآن الكريم ضمير الخطاب على ضمير الغيبة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ النساء: ٥، فبعد أن أشار إلى اختلاف المفسرين في المراد بالسفهاء وأشار إلى أحسنها([2]) ، نبه على أمور بقوله: "وإنما قال (أموالكم) ولم يقل :(أموالهم) مع أنَّ الخطاب للأولياء، والمال للسفهاء الذين في ولايتهم للتنبيه على أمور([3]):

أحدها : أنه إذا ضاع هذا المال ولم يبق للسفيه من ماله ما ينفق منه عليه ، وجب على وليه أن ينفق عليه من مال نفسه . فبذلك تكون إضاعة مال السفيه مفضية إلى إضاعة شيء من مال الولي .

ثانيها : أنَّ هؤلاء السفهاء إذا رشدوا وأموالهم محفوظة لهم وتصرفوا فيها تصرف الراشدين .. فإنه يصيب هؤلاء الأولياء حظٌ منها .

ثالثها : التكافل في الأمة ، واعتبار مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين.

وقد يخالف الاستاذ الإمام بعض المفسرين في الإشارة إلى مرجع الضمير([4])؛ على نحو ما نجد في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٤٦ ، حيث أشار إلى استبعادهم أن

([1]) المنار: ج1، ص357 بتصرف

([2]) اختلف مفسرو السلف في المراد بالسفهاء في هذه الآية ؛ فمنهم من قال هم اليتامى والنساء ، ومنهم من قال إنهم النساء خاصة ، وقيل الأولاد الصغار ، وقيل هي عامة في كل سفيه من صغير وكبير وذكر و أنثى واختاره ابن جرير وجُعل الخطاب لمجموع الأمة وهو أحسن الأقوال عند الأستاذ الإمام .

([3]) المنار: ج4، ص380

([4]) للعلماء في الضمير المنصوب من (يعرفونه) خمسة أقوال ، هي باختصار ، الأول :أنه عائد إلى النبي – ص- والثاني : أنه عائد على الحق ، والثالث : أنه يعود على القرآن ، والرابع :أنه يعود على العلم ، والخامس : أنه راجع إلى البيت الحرام ، انظر: الضمائر المحتملة في القرآن الكريم : د: ملْفي بن ناعم الصاعدي ، مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد 127 ، ص64

يكون مرجع الضمير في قوله (يعرفونه) للنبي – صلى الله عليه وسلم – وجعلوه لما ذكر من أمر القبلة ؛ مع تقدم ذكره في الآيات ، ومع ما يعهد من الاكتفاء بالقرائن في مثل هذا التعبير."([1]).

وكذلك عند تفسير قوله تعالى :" ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾النساء: ٥٥، فالقول المشهور أنَّ مرجع الضمير في قوله :(آمن به) للنبي – صلى الله عليه وسلم – أو ما أنزل عليه وقيل إنه عائد إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقيل إلى الكتاب . وقال الأستاذ الإمام " : يرجع الضمير إلى ما ذكر من الكتاب والحكمة والملك العظيم، فأما الإيمان بالكتاب والحكمة (وهي ما جاء بها الأنبياء من بيان أسرار الكتاب ، فظاهر ، وأما الإيمان بالملك فهو الإيمان بوعد الله تعالى به ، وهكذا شأن الناس في كل شيء لا يتفقون عليه ، و إنما يأخذ به بعضهم ويعرض عنه آخرون "([2]).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾البقرة: ١٩٩، رد قول الجلال([3]): بأنَّ الخطاب لقريش خاصة مُعللًا ذلك بأنَّ الأسلوب ينافيه ، وأنَّ الخطاب في الآيات كلها عام ، قال :" وهم يذكرون هذا كثيرًا ولا يذكرون له نكتة تزيل التفاوت من النظم"([4]). والرأي الأول هو الراجح لعدة أمور؛ منها:

أنَّه يعتمد على حديث عائشة - رضي الله عنها –عند الشيخين- :" أنَّ قريشًا ومن دان دينهم وهم الحمس كانوا يقفون في الجاهلية بمزدلفة ترفعًا عن الوقوف مع العرب في عرفات ، فأمر الله نبيه أنْ يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها"([5]).

وكذلك فإنَّ التكاليف مخاطب بها جميع الأمة، وقريش منها ، كما أنَّ هذا القول قول أئمة التَّفسير من السَّابقين واللَّاحقين "([6]).

([1]) المنار: ج2، ص20 ، والأعمال الكاملة :ج4، ص330

([2]) المنار: ج5، ص163

([3]) تفسير الجلالين بهامش المصحف الشريف (جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي) ، دار الحديث القاهرة ، ط3، 1422هـ- 2001م ، ص31

([4]) المنار: ج2، ص234 ، والأعمال :ج4، ص487 وهذا القول أخذه الأستاذ الإمام عن الضحاك و أبي حيان والسمين الحلبي - رحمهم الله جميعًا -.

([5]) الحديث رواه البخاري في كتاب الحج ، باب الوقوف بعرفة ، برقم 1665 ، ص403 ، والحمس هم قريش وما ولدت قريش وكنانة وجديلة وقيس ، سموا حمسًا لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشددوا

([6]) الضمائر المحتملة في القرآن الكريم : د: ملْفي بن ناعم الصاعدي ، ص77

●الإشارة إلى وضع المُظهر موضع المُضمر:

الأصل في الأسماء الظهور، فإذا كرر الاسم ذكر بدله الضمير الدال عليه ، لكن قد يعدل عن هذا الأصل ؛ فيذكر الاسم الظاهر محل الضمير لمناسبة بلاغية ، لا تتأتى هذه المناسبة لو استعمل الضمير"([1]) وفي هذا كما نعلم عدول عن الأصل ، وهو كثير في القرآن([2])، قال السمين الحلبي : " القرآن ملآن من هذا النوع وهو من أحسن ما يكون"([3]) ، نحو قوله تعالى: الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3)؛الحاقة: ١ - ٣، وقد عده أحد المعاصرين أصلًا من أصول البلاغة القرآنية ؛ حيث يقول :" خذ المصحف و اقرأ فيه من أي موضع تشاء تجد هذا الأسلوب وكأنه أصلٌ من أصول البلاغة القرآنية .."([4])

وقد أفاض فيه المفسرون والمهتمون بعلوم القرآن كالزركشي([5]) الذي ذكره في الباب السادس والأربعين من أنواع علوم القرآن وأساليبه ، والسيوطي الذي ذكره في باب الإطناب"([6])، وغيرهم كثير.

وأما فوائده فكثيرة ؛ أشار إليها المفسرون والبلاغيون([7]) ، ومنها :

-إلقاء المهابة في نفس السامع ، نحو قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾النحل: ٩٠،.. أظهر اسمه –سبحانه – الذي هو أعرف المعارف ووضعه مكان ضمير المتكلم؛

([1]) وضع الظاهر موضع المضمر في تفسير الجلالين : جمعًا ودراسة :د: علي جريد العنزي ، قسم الدراسات الإسلامية ، جامعة : الحدود الشمالية ، مجلة العلوم الشرعية ، العدد الخامس والأربعون ، شوال 1438هـ، ص250

([2]) وصل عند بعض المفسرين إلى أكثر من ثمانين موضعًا

([3]) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ، تحقيق : د: أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق، 1406هـ.، ج6، ص53

([4]) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني لمحمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط4، 1416هـ- 1996م ، ص247

([5]) البرهان في علوم القرآن للزركشي: تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة ، ط3 ، 1404هـ. 1984م ، ج2، ص482

([6]) الإتقان للسيوطي : ج3، ص244

([7]) وضع الظاهر موضع المضمر في تفسير الجلالين ، ص261

لتحضر لدى السامع مهابته وتتجلى عظمته فينساق إلى أمر الله."([1])

-التلذذ بذكر الاسم الظاهر ولا يتحصل هذا لو ذكر الضمير، نحو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَ اتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٨٢

-التنبيه على علة الحكم وهذا أحد أهم أغراضه ، نحو قوله تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢، قال الشيخ ابن عثيمين :" الحكم إذا علق بوصف دل على عِلِّيةِ ذلك الوصف فيه "([2]).

ولمَّا كان مفسرنا مولعًا ببيان تلك النكات البلاغية موظفًا إياها في خدمة المعنى المراد من الآية، فقد تعرض لهذا الأسلوب القرآني البديع فأشار إلى النكات البلاغية من وراء وضع الاسم الظاهر موضع الضمير كثيرًا ؛ نحو قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ البقرة: ٥٩، فقال :"يدل قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ على أنَّ هذا العصيان لم يكن من كل بني إسرائيل ، وأنَّ هذا الرجز كان خاصًا بالظالمين منهم الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه، وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر موضع المضمر؛ فقال :(فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) ولم يقل: (فأنزلنا عليهم) ، ولعل وجه الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إيهام كون الرجز كان عامًا كما هو الغالب فيه ، ثم أكده بتأكيد آخر، وهو قوله (وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)، وفي

([1]) البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ج2، ص490

([2]) تفسير سورة آل عمران لابن عثيمين ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، ط3، 1435هـ ، ج1، ص200 ، و انظر: وضع المظهر موضع المضمر في تفسير الجلالين ، ص264

هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين ما فيه"([1]).

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾البقرة: ٨٩، بيَّن أنَّ الكفر صفةٌ لازمةٌ لهم من وضع المظهر موضع المضمر في الآية وهو قوله : (فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) فقال :" ذلك أنَّه راعهم كونه بُعث في العرب فحسدوه ، فحملهم الحسد على الكفر به جحودًا وبغيًا ، فسجلت عليهم اللَّعنة التي أصابتهم بكفرهم الأول بأنَّ الكفر صار وصفًا لازمًا لهم ، ولذلك قال : (فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) ولم يقل : عليهم ؛ لأنَّ المظهر أبلغ وأعم وأشمل "([2]) وعند تفسير قوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ البقرة: ٢٥٣ ، أشار إلى النكتة البلاغية من وراء التعبير بالمظهر موضع المضمر بقوله :" بين هذا التفضيل في بعض المفضلين ، فقال : (منهم من كلم الله) بصيغة الالتفات عن الضمير إلى التعبير بالظاهر لتفخيم شأن هذه المنقبة . والغرض من هذا الالتفات إلفات الأذهان إلى هذه المنقبة تفخيمًا لها وتعظيمًا لشأنها"([3]).

الخاتمة :

من خلال هذا البحث نستنتج أن المفسر لا يتثنى له فهم القرآن وتأويل معانيه إلا إذا كان على علمٍ بمرد الضمير ومرجعه في القرآن الكريم ؛ ونستنتج أيضًا أن الأستاذ الإمام قد تمتع بسليقة لغوية وحس بلاغي مرهف مكناه من فهم الدور الذي تقوم به الضمائر في تماسك النص القرآني وتعدد معانيه ؛ فقد اعتمد على المعنى المفهوم من السياق ليبين أن النظم القرآني قد يأتي على خلاف الظاهر، ويرى أن الالتفات في الضمائر من أهم أسباب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كما خالف بعض المفسرين في الاشارة إلى مرجع الضمير مرجحًا ما يراه بالدليل من السنة أو السياق القرآني العام أو

([1]) المنار: ج1، ص325 ، والأعمال : ج4، ص182

([2]) المنار: ج1، ص381 ، والأعمال الكاملة :ج4، ص227

([3]) المنار: ج3، ص3 ، والأعمال الكاملة :ج4، ص694

القياس الفقهي ، أوغيرها . كما يرى أن وضـــع المظهر موضـــع المضـــمر في القرآن جاء لأغراض بلاغية تخدم المعنى المراد ، منها التأكيد، والتفخيم ، وثبوت الصفة .

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1. الإتقان في علوم القرآن للســـيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضـــل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1394هـ- 1974م
2. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : تحقيق وتقديم : محمد عمارة ، دار الشـــروق ، ط1، 1414هـ -1993م
3. الأمالي النحوية لابن الحاجب
4. الإيضـــاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط1، 1426هـ- 2006م
5. البرهان في علوم القرآن للزركشي: تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة ، ط3 ، 1404هـ.1984م
6. التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ، 1984م
7. تفســـير الجلالين بهامش المصـــحف الشـــريف (جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي) ، دار الحديث القاهرة ، ط3، 1422هـ- 2001م
8. تفسير سورة آل عمران لابن عثيمين ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، ط3، 1435هـ
9. تفسير المنار(تفسير القرآن الحكيم) لمحمد عبده ورشيد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب 1990 م
10. خصـائص التراكيب دراسـة تحليلية لمسـائل علم المعاني لمحمد محمد أبو موسـى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط4، 1416هـ- 1996م
11. الدر المصـــون في علوم الكتاب المكنون للســـمين الحلبي ، تحقيق : د: أحمد محمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، 1406هـ.
12. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام النحوي ، تحقيق : محمد أبو الفضل عاشور، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1422هـ- 2001 م
13. شرح المفصل لابن يعيش ، تحقيق : د: إميل يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1422هـ- 2001م

14. الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها لابن فارس ، تحقيق : مصطفى الشربيني ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 2003م
15. العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ،تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجبل ، بيروت ، ط5، 1981م
16. في ظلال القرآن لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط17، 1992م ، ج2، ص1133
17. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ، تحقيق : عبد الرازق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،
18. ليس في كلام العرب لابن خالويه ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، مكة المكرمة ، ط2، 1399هـ- 1979م .
19. معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1366هـ
20. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق : مركز الدراسات والبحوث ، مكتبة نزار مصطفى الباز.

المجلات العلمية :

1.21 الإحالة بالضمائر ودورها في في تحقيق الترابط في النص القرآني (دراسة وصفية تحليلية): نائل محمد إسماعيل : مجلة جامعة الأزهر بغزة ، سلسلة العلوم الإنسانية ، 2011
22. الضمائر المحتملة في القرآن الكريم : د: ملْفي بن ناعم الصَّاعدي ، مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد 127.
23. وضع الظاهر موضع المضمر في تفسير الجلالين : جمعًا ودراسة : د: علي جريد العنزي، قسم الدراسات الإسلامية ، جامعة : الحدود الشمالية ، مجلة العلوم الشرعية ، العدد الخامس والأربعون ، شوال 1438هـ.